سماح ادريس وعماء الرؤى

هادي الناصر

كيف نحترم القارئ الكريم..؟ وكيف نؤسس لمعايير تمتلك الصدقية لتؤكد هذا الاحترام..؟ وكيف يكون الاحترام نابعاً ومتوافقاً لاحترام الذوات التي تسكن فينا..؟ ليس في ذلك صعوبة إذا اعتمدنا وانطلقنا من نيات طيبة وصادقة ونبذنا الضغائن التي تدمر النفوس وتشيع الدمار.

اسئلة كثيرة تراودنا وحيرة مصاحبة لنا ابداً، لأن اغلب السهام الغادرة تأتي من البعض من ابناء عمومتنا الجالسين في ابراج ذهبية ويكيلون لنا انواع التهم والخطايا المرافقة للمفخخات والارهاب الاسود!! فهم بارعون وماهرون في استهدافنا والحط من كرامتنا الوطنية في أي مجال يتاح لهم وتلك طامة جبلوا عليها!!.. ويا للأسى!! وكأن الكائن العراقي مشروع دائم للاستباحة والانتهاك..!! فهم يصرون ابداً على الانبراء لتشويه الحقائق وكيل التهم بحق رموز عراقية والتجني على شخوصها، في وقت نمني النفس بأن يكونوا سنداً وعوناً في ظل اضعف مجسات الايمان والانتماء!!! فلم هذا التجني؟ ولم هذا التناول غير المسؤول لرموز العراق الوطنية، سياسية كانت ام ثقافية..؟ لا نعلم.. انها محنة، ولا نريد ان نقول دوافعها اتقاء شر التأويل..!! فالذي كتبه السيد سماح ادريس رئيس تحرير مجلة الآداب اللبنانية في افتتاحيته المعنونة نقد الوعي "النقدي" كردستان - العراق انموذجاً يدخل في هذا السياق الذي اشرنا إليه آنفاً، والمعتمد على قصدية الإساءة والتشهير بالانسان العراقي، دون وجود أدنى مصداقية لما طرحه، ودون الاعتماد على اية وثيقة معتبرة ليكيل التهم جزافاً للقامات العراقية السامقة!! فهو ببساطة يتهم (٨٠٠) مثقف عراقي وعربي شاركوا في مهرجان المدى الثقافي الخامس بأنهم من بائعي الذمم لمشاركتهم في المهرجان!! معولاً على كلام لسعدي يوسف واتهام فخامة رئيس الجمهورية ومستشاريه الثقافيين بشراء ضمائر المثقفين والصحفيين العراقيين والعرب وكم افواههم عن قول الحقيقة!! والكثير من الافتراءات والكلام غير المسؤول!!

لا نطيل لأننا نعتقد ان الحقائق شاخصة امام كل رائي، لكننا بحاجة إلى توضيح بسيط هو: ان العراق سيزدهر برموزه وابنائه، ومؤسسة المدى منذ دخولها إلى بغداد بعد سقوط (صنمهم) تساهم في تكريس وتنمية ثقافة عراقية ناجعة، من خلال مهرجاناتها ونهاراتها واعمالها الانسانية الكبيرة في دعم المثقف والانسان العراقي، واتيانها بالمطبوعات المترجمة، واحتضانها مشاريع في مختلف الاجناس الابداعية، وليقل الحاسد ما يقل فإنه مبتلى!! ولا حرج!!

الإنحياز إلى الثقافة العراقية وتأريخها

جاسم عاصي

على ضوء اللقاء الذي أجرته قناة العربية الفضائية مع الأستاذ (فخري كريم)، وإنطلاقاً من حيثيات ما طرحه للرد على كل ما إدعوا على مؤسسة المدى؛ سيكون سجالي مع سماح إدريس و من حرر قوله ومساندته ،للرد على الإفتراءات الناتجة عن مواقف مخطوءة أزاء ثقافة ومثقفين، يعرف من إدعى بطلانها ،ويعرف كيف هي من ثقافة متجذرة في التأريخ أولاً، وكيف هو تأريخ المثقفين أولئك ثانياً.

لعل مثل هذه الدعوات والصرخات تجد جذورها ممتدة عميقاً في كل ما هو محرك للواقع ونعني به واقع الآخر، الذي نحاول أن نستشرف لقاءه والإندماج معه في حوار هادئ - كما إعتادت الآداب - كمشروع ثقافي إصطف معه كل التقدميين في العالم العربي، لما لعبته هذه المجلة من دور فعّال منذ خمسينيات القرن الماضي، أسوة بالمجلات الأخرى التي كان العراقيون يتلقفون أعدادها من المكتبات، ومن خلالها أسمعوا أصواتهم الإبداعية. ولا أريد أن أُسهب في ذلك، بقدر ما أذكر بما كانت تصدره المجلة من أعداد خاصة، سواء في حراك الثقافة أو حراك السياسة والأحداث القومية.

أعود لأقول أن هذا الموقف وغيره مما شهدناه على الساحة، لاينفصل عن مواقف بعض السياسيين والمثقفين العرب من كل ما حدث ويحدث في العراق. ولعله عميق الصلة بالمواقف لهم في فترات شهد فيها العراق أقسى الظروف. إذا إرتبط موقفهم بالموقف السياسي أولاً ثم تخوفهم من أن تنهض الثقافة العراقية - وهي ناهضة في حقل الذات - والإبداع دائماً لأنها تنطلق من مفهوم واسع للثقافة وليس محدداً بأقانيم يمكن أن نطلق عليها بالمفهوم الضيق للفكر والمعرفة، وإلا كيف لمجلة ساهمت في كل مسيرتها لرفد المشهد بالجديد والحداثوي تميل إلى موقف آخر مغاير تماماً، علماً أن لكل مطبوع أو قناة ثقافية سياستها ومبادئها. فالموقف هذا يرتبط بشكل أو بآخر بجملة أسباب، هي خارج منطق الأسس التي عودتنا الآداب السير عليها، والإسترشاد بهديها. فمن المفترض أن تدرك هيئة التحرير وعلى رأسها السيد (سماح إدريس) طبيعة الظرف الذي يمر به بلد كالعراق، ومثقف مثل المثقف العراقي من محنة، لا يعجز عن إستنهاض الدفاعات عن تأريخه وإرثه الثقافي الذي يمتد إلى سالف القرون ما قبل الميلاد. إنه بأزاء ذاكرة مهددة، لا يتوجب الوقوف أزاءها هكذا من دون روية ومنطق تحليلي، يستند إلى أسس ومبادئ. فالذي رأيناه هو موقف بعيد عن حقيقة ما يدور داخل البلد، ومحاولة لتحميل الشعب متمثلاً بالمثقف وزر فعل لم يرتكبه، كذلك يُسقطون عقدهم على المثقف العراقي دون معرفة موقفه الحقيقي من كل ما يجري. فقط يعتمدون على أفراد أصيبت آذانهم بالوقر فراحوا ينقلون مالم يشاهدوه في واقع الحال، مكتفين بإنتشال ما يجب أن يؤججوه بحيث يكون قابلاً للتشويه والمراوغة. إن المثقف الوطني و (القومي) الذي يمتلك حساً إنسانياً، هو من يضع الموازنة نصب عينيه، ليس في هذه الفعالية أو تلك، وإنما في معظم ما يراه ويسمعه، مستنداً إلى موقفه الذاتي المرتبط بالحقيقة التي أفنى الكثير من بني البشر حياتهم قرباناً للكلمة الشريفة والموقف المبدئي. الموقف الذي ينبغي أن يكون. لذا فالمعرفة بالشيء والمستندة إلى جهد ذاتي وستراتيجية أصيلة نابعة من مبادئ عامة وشاملة، غير الموقف المتخاذل أمام إغراءات المصلحة متعددة الصفات والمصادر. إننا بإزاء تأريخ يتوجب الدفاع عنه، وأننا أمام عملية إمحاء للذاكرة الثقافية. ونحن كذلك بأزاء البحث عن إصطفاف ثقافي - سياسي لإنقاذ البلد من آتون مدمر كما نستشرفه. وكما تشير لنا المبادئ التي وسعت من دائرة إستقبالنا للمتغير. وبودي أن أذكر حادثة شاهدتها يوماً، وكتبتها في صحيفة (طريق الشعب) إبان السبعينيات على شكل قصة قصيرة. كانت القصة تدور حول رجل كهل يقطن في هور الجنوب، ويومها كنت معلماً هناك. كان ينصت إلى المذياع وهو يبث المارشات العسكرية عن حرب تشرين، وصاحب المقهى ينتقل من محطة إلى أُخرى لتأكيد وملاحقة الأخبار. وحين إنتهت كل المحطات من بث أخبارها، هز الرجل القابع في زاويته ساعده قائلاً: ((إتبين هذي داوركيسة)). ولم نع ذلك إلا بعد أن أتى علينا (هيكل) باجتهاداته قائلاً: إنها حرب تحريك وليست حرب تحرير. فتلقفها السياسيون والمنظرون واختاروها لقمة يلوكون بها خيباتهم وخيبات ساستهم الذين طبلوا لهم مراراً. وأنا الآن ودائماً أتذكر مثل هذا القول لذاك الرجل، واتساءل: كيف عرف الرجل سر ذلك..؟ وما من مدرسة دخلها..؟ والإجابة كانت واضحة في قول (المجالس مدارس) وما وجود المعلم آنذاك إلا وجه الوعي وأداته في ريف الجنوب، والذي كان الإقطاع يحسب له ألف حساب. إعود لأقول للسيد سماح؛ أننا نعمل كمثقفين لإعادة مثل ذلك الوعي لهذا الإنسان الذي يعيش بين ظهرانينا ولأجيالنا التي أمحت ذاكرتهم السنين وغيب عنهم التأريخ الحقيقي، وزودوا بتأريخ من صنع الساسة. فلابد من أن يدرك سيادتكم مبلغ المهمة التي أناط المثقف بها على نفسه الآن. وما بلاغة المثل الذي ضربته سوى الحجر الذي يمكننا أن نرمي به شيطان الجهل الثقافي والسياسي، وأن لا نكتفي برمي الشيطان كل عام لاهثين، متدافعين بالمناكب مستخدمين كل السبل للوصول إليه، قاطعين الفيافي والمسافات، متناسين الشيطان الرابض في داخلنا، فهو الأجدر بالرجم.

ما نريد قوله أيضاً أن أية فعالية تُقام داخل البلد يتوجب عليها أن تنحو منحى إعادة الدفاع عن الذاكرة الثقافية التي تطاولت عليها أيدي التخريب الذي نشهده يومياً بتواتر عجيب، من التحريفات والإجتراحات، هي في جملتها بعيدة عن هموم الناس. لذا أعتقد أن إقامة مهرجانات في العراق، يتوجب أن تلاحق بنية حسنة، متبعين أشرف الطرق للوصول إلى الحقيقة، لا أن يُعتمد من له نيات سيئة، أو منطلق من أفكار مسبقة تستند إلى مصالح جماعة تدر أموالاً لمصلحة أفكارها ونياتها المدمرة، فمؤسسة المدى حين نقلت فعالياتها إلى داخل العراق، إنما وكما نفهمه نحن العراقيين؛ إنها نية بيضاء لكي يكون المثقف بمواجهة نفسه، وبمواجهة أمثاله ممن تغربوا وشُردوا إلى بقاع الأرض، ومع المبدعين من شتى بقاع الأرض أيضاً، فلسنتين أو دورتين لم نشهد سوى المجال الحيوي من طروحات الثقافة العراقية، سيما أنها كانت ثقافة متنوعة وجادة وأولت للإختصاص أهمية إستثنائية، إبتداء من البيئة، وصولاً إلى آخر المستجدات في الفكر وضروب الثقافة كالمسرح والرواية والقصة والتشكيل والفن الغنائي والموسيقي والثقافة الشعبية. إن تنوعاً كهذا لايتوجب محوه بسهولة أيها الأخ سماح،وإنما مباركته، مبعدين كل ما ورثناه من زمن الضيق السياسي والقومي ناظرين بعين لاتعرف سوى الحقيقة في حالة وزن الأمور بميزان الحق. إن موقفكم هذا لايختلف عن المفارقة الخارقة التي وقفها وما زال يقفها إتحاد الأدباء والكتاب العرب، في عدم قبول عضوية إتحادنا. ترى من خول مجموعة من ضيقي الأفق التحكم بمثل هذا الضرب من الحق الذي يحاول البعض إستغلاله لنواياهم المسبقة في الكيل للمثقف العراقي. هنا لابد من القول، أننا كمثقفين عراقيين، نعي جيداً ما ينتظرنا من مهام هي من صلب واجباتنا الوطنية، في دفاعنا عن ثقافتنا ضد محو المحتل لها، وضد من يحاول غمط المشرق فيها، ابتداء من فكرة التنوير والعمل الفكري والجمالي، الذي لا تخلو منه الساحة الثقافية العراقية، وهي تلاحق الظواهر عبر منابر موسمية وإسبوعية وشهرية. ولا أعتقد أن ثمة عقبة توقف مثل هذا الجهد، سواء من خلال ملتقى المدى أو غيره.

كمال طاهر (١٩١٠ - ١٩٧٣) أحب الروائيين الأتراك إلى قلوب القرّاء

٢-٢

احسان الملائكة

آثاره وأفكاره

كان كمال طاهر كاتباً قبل أي شيء آخر، الكتابة كانت تعني الحياة لديه. من أهم آرائه أن الكاتب لا بد من أن يتعاطى مع حقائق الحياة ولا يكتفي بمظاهرها الخارجية، ويعلن ان الكاتب يجب ان يكون متفائلاً مهما اشتدت حلكة الظلام حوله. وبسبب طول اقامته في السجون تعرف بعمق على كل مشاكل مجتمعه، وعرضها بشكل محايد في رواياته، وفي رواياته تحدث عن مختلف اصناف الناس بتفهم وعطف شديدين، وقد تجنب دائماً لهجة التحقير او التوبيخ او التعالي او الوعظ البارد، وفيما عدا ذلك لم يحاول يوماً الانتماء إلى جهة سياسية معينة لا لأنه لم يمتلك وجهة نظر معينة بل لأنه كان رجلاً واسع الآفاق منفتحاً على جميع الآراء والافكار. كان يرى أن الفكر لا حدود له، ولا بد من ان يكون في ارتقاء أبدي إلى الأفضل والأسمى. كان يؤمن على سبيل المثال بنظرية الفعل ورد الفعل، فلكل فكرة مهما بلغت صحتها، فكرة مضادة لها، كان بهذا جدلياً ديالكتيكياً. في الواقع ان كمال طاهر كان شديد الاهتمام بقضية وحدة ابناء الشعب، ويرى ان ذلك يأتي عن طريق خلق ضمير او وجدان جماعي لدى ابناء الشعب، وكان هو نفسه أنبل من جسد هذا الوجدان. ومن أجل تحقيق هذا الهدف الكبير سعى إلى دراسة الخصائص المادية للمجتمع التركي مستفيداً من الحقائق التاريخية المتوفرة، فضلاً عن دراسته المعمقة لفلسفة كارل ماركس ومبادئه الاقتصادية والاجتماعية. من ناحية اخرى آمن كمال طاهر بالنظرية النسبية التي بشر بها العالم اينشتاين وأعجب بها اعجاباً شديداً، وربما كان هو أول كاتب تركي يستفيد استفادة حقيقية من نسبية اينشتاين في آثاره ورواياته.

ممن تأثر بكمال طاهر في اتجاهاته هذه الكاتبان المعروفان "سليم ايلري" و"أتيللا إلهان"، على الرغم من اختلافهما عنه في ميولهما ومزاجيهما.

على ان تأثيرات كمال طاهر لم تقتصر على ميدان الادب بل انه نجح في خلق شعور وطني، واقعي النزعة لدى المثقفين من مؤرخين وحقوقيين واقتصاديين وفنانين.. الخ، لهذا اعتاد الدارسون ان ينظروا إلى كمال طاهر كمفكر اكثر مما هو روائي، وربما كانوا مبالغين في موقفهم هذا منه.

كان كمال طاهر من دعاة الواقعية في الأدب متأثراً بكبار الروائيين العالميين وفي مقدمتهم الروائي الفرنسي الواقعي العظيم بلزاك.

في رواياته التاريخية القى كمال طاهر الأضواء على معاناة أهل الاناضول تحت حكم مختلف الدول، ففي روايته "دولن أنة" رسم صورة شاملة لأحوال المواطنين تحت هيمنة الدولة المغولية الغازية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ووضح النتائج المؤلمة التي أدت إليها سياستهم الاقتصادية الخرقاء ما هيأ المجال لانتصار السلطان "ارطغرل بيك"، الذي سنّ قوانين رشيدة لإدارة إمارته الجديدة، ومن إجراءاته الخاصة انه استعان بعدد من ذكيات النساء والمتصفات بالشجاعة والحكمة لإدارة البلاد جنباً إلى جنب مع الإداريين من الرجال، ومن الأمور التي تطرقت إليها الرواية ضرورة نقل الافكار والتكنلوجيا بين الشرق والغرب، كما انه تجرأ على انتقاد الأعراف الاجتماعية الخاطئة لاسيما ما يخص منها الزواج!! عدا كل ذلك لم يغفل كمال طاهر دور شاعر المحبة والسلام التركي "يونس إمرة" في توحيد قلوب الاتراك في تلك المرحلة الخطرة من تاريخ وطنهم.

كان كمال طاهر كاتباً ملتزماً يؤمن بأن الفنان ملزم اخلاقياً بأن يكون داعيةً لفكرة عظيمة او لمبدأ شريف، يتجلى موقفه هذا في رواياته التاريخية الكبيرة: "أهل المدينة الأسيرة" التي تبدأ احداثها في القرن السادس عشر، وتنتهي بانهيار الدولة العثمانية بعد فترة احتضار طويلة، وما أعقب ذلك من مصائب. وهكذا رسم كمال طاهر في هذه الرواية لوحة ضخمة لمعاناة الشعب التركي طيلة تلك الظروف والاحداث، اذ لم ينل ابناء الشعب غير القهر والذل والحرمان، شأنهم شأن بقية الشعوب التي خضعت لحكم العثمانيين مثل العرب واليونانيين وأهالي البلقان الخ.

اما رواية "قانون الذئب" فهي ترسم لوحة للعهد الجديد عهد الجمهورية التي أنشأها مصطفى كمال اتاتورك بعد انتصار حركته التحريرية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. في هذه الرواية وقف كمال طاهر من الأحداث الخطرة موقفاً محايداً موضوعياً، وقد نجح في كل رواياته في ان يكتم أحاسيسه الشخصية كي يقف وقفة الحياد كما يقتضيه علم التاريخ، باذلاً جهده ان يتفهم مختلف وجهات النظر لأبطال الاحداث، على ان ذلك لم يمنعه من توجيه الانظار كعادته في كل رواياته إلى معاناة الشعب المسحوق بسبب سياسة الاستغلال والفساد التي تتبعها السلطة الحاكمة مهما تبدل نوع الحكم!!!

أدرك ناظم حكمت أهمية روايات كمال طاهر، وهو أول من فهم المدى الذي يمكن ان تبلغه رواياته في تغيير مفاهيم الناس، والتأثير في أخلاقهم وتصرفاتهم. يقول ناظم حكمت في رسالة إلى صديقه مؤرخة في ١٩٤٧/١/٢٧ (من واجبنا يا عزيزي كمال أن نقدم إلى أحبتنا من ابناء الشعب مؤلفات نبيلة الأهداف، تلتزم جانب الحق، وذلك بالضبط ما يجده القراء في مؤلفاتك وما أرى انا فيه عزائي الكبير. وبدون اخلاصنا للوطن لن نتذوق طعم راحة الضمير).

إن رسائل ناظم حكمت إلى كمال طاهر مثلما تثبت تعظيمه لفن صديقه كمال فانها في الوقت عينه تثبت نبل صاحبها واخلاصه العظيم لوطنه وللإنسانية جمعاء.

ربما كان رأي الناقد "سليم ايلري" أفضل ما كتب حول أدب كمال طاهر. يقول (إن المعجبين بكمال طاهر، وأنا في مقدمتهم، تذهلهم دراساته العلمية العميقة لمراحل تاريخ بلادنا، وقدرته العظيمة على رسم صور دقيقة لحياة الناس في العصور الماضية لكن موضع انتقادي في هذا المقام ان رواياته تلك يمكن أن تعد رواية واحدة، تعاد كتابتها مرة بعد أخرى، وسبب هذا القصور أن أي كاتب لا يستطيع تغيير أسلوبه، فالأسلوب هو الرجل كما هو معروف.)

على ان النقد الموجه إلى روايات كمال طاهر لم يكن كلّه موضوعياً او محايداً، فقد هاجمه أنصار مصطفى كمال بسبب ما كان يردده بعض ابطال رواياته من عبارات لا تليق بمقام زعيم تركيا العظيم، وهكذا انتقل النقد الأدبي إلى الميدان السياسي أي بين أتباع اتاتورك وأعدائه!!

والواقع ان كمال طاهر جاهر فعلاً في بعض فصول رواياته بانتقاد عهد كمال اتاتورك، وكيف لا يفعل ذلك وهو نفسه كان بين ضحايا ذلك العهد الجمهوري، شأنه شأن كثير من التقدميين الذين عارضوا نزعة اتاتورك الدكتاتورية على الرغم من كل اصلاحاته وخدماته العظمى للشعب التركي. الم يفقد كمال طاهر وناظم حكمت خيرة سنوات شبابيهما قابعين في السجون، لمجرد اختلاف آرائهما عن آراء الزعيم الكبير، على ان موقف كمال طاهر وبقية زملائه التقدميين لم يكن يعني اطلاقاً معاداتهم للجمهورية او لاصلاحات اتاتورك الذي اخرج تركيا من ظلمات القرون الوسطى التي غرق فيها الناس على أيدي سلاطين بني عثمان وامبراطوريتهم المتخلفة الرجعية في اغلب عهودها، لم يكن نقد كمال طاهر للعهد الجمهوري شبيهاً بشتائم الشاعر العثماني النزعة "احمد عاكف" واضرابه بل بالعكس، فقد كانت كل روايات كمال طاهر تفضح سياسة العثمانيين وتصور فساد حكمهم وتزيح الستار عن الكوارث التي أصابت الشعوب الخاضعة لهم وبضمنهم الاتراك انفسهم بسبب تخلف ورجعية السلاطين وعزلتهم التامة عن ركب الحضارة الانسانية الحديثة. كل ما في الأمر ان كمال طاهر كان يعتقد بان الاحوال العامة لأي بلد لا يمكن ان تتغير بين ليلة وضحاها بعصا ساحر، أي بمجرد تبدل الحكومات، ذلك ان التغيير الحقيقي بحاجة إلى تحقيق شروط معينة بدونها يستحيل وقوع التغيير الجذري. وذلك هو الدرس الذي سعى كمال طاهر إلى تعليمه للقراء ضمن الدروس الاخرى الكثيرة.

في مطلع حياته الأدبية نشر كمال طاهر القصص القصار الواقعية وكان ينشرها تحت اسماء مستعارة بلغت خمسة عشر اسماً!! اما رواياته الكبرى فلم يطبعها إلا بعد إطلاق سراحه في أوائل الخمسينيات. فلو أمكن ان تكون للسجن فائدة، فإن كمال طاهر، يعد مستفيداً من تلك التجربة الأليمة، تفسير ذلك يرد في احدى رسائله اذ يقول: (السنوات الطوال التي أمضيتها خلف قضبان السجون، هيأت لي فرصة التعرف على مرارة حياة أبناء وطني. تلك التجربة الموجعة التي أزاحت الغشاوة عن عيني، فأصبحت رجلاً لا تغره المظاهر البراقة، ولا تخدعه أساليب الدعاية.)

تتصل بعض روايات كمال طاهر بحياته الشخصية، فرواية (أهالي المدينة الأسيرة) تعرض صوراً لبعض زملائه المساجين الذين لم يسلبهم السجن أياً من صفاتهم الشخصية النبيلة او طباعهم الجميلة، وفي مقدمة هؤلاء السجناء، السياسيون وحاملو الفكر الحر، وهو يورد نماذج من المحادثات التي كانت تجري بين السجناء المثقفين فتزيح الستار عن مدى المعاناة التي كان الاحرار يتعرضون لها، وذلك على الرغم من مسحة الديمقراطية البادية على الصحف ودور النشر والاذاعة والتلفزيون في تركيا. معلوم ان الديمقراطية في الشرق الأوسط لابد من ان تظل قاصرة وناقصة بحكم تركيبة المجتمعات في هذه المنطقة من العالم.

في سجن بلدة (ملطية) ألف كمال طاهر رواية (أهل الناموس) التي تزيح الستار عن خفايا الحياة العائلية الخاضعة للتقاليد البالية في الأرياف والقرى النائية، التقاليد المسؤولة عن تخلف المجتمع وتجميد الحياة فيه، وتقف حاجزاً صلباً بينه وبين العالم الخارجي. ويرسم المؤلف صوراً حية للعلل الاجتماعية هناك، وكيف تتحكم الأعراف الرقيعة بمصائر الافراد لأنها تتلبس بالمفاهيم التي تؤثر في اعماق ضمائر الناس كالغيرة على العرض والحفاظ على شرف العائلة في حين تكشف الأحداث عن كون المتحكمين في المجتمع من ذوي المقامات العليا هم أنفسهم أشد الناس تجاوزاً للمفاهيم الاخلاقية التي يتظاهرون بالحرص عليها. وهم أبعد الناس عن تطبيقها في حياتهم اليومية.

في رواياته حرص كمال طاهر على أن ينهج نهجاً موضوعياً وغير شخصي وهو في هذا متأثر بالكتاب الفرنسيين المحدثين لاسيما فلوبير الذي كان ينصح الكاتب الروائي بأن يتجنب عرض شخصيته الخاصة في رواياته، لأن الفن العظيم يجب ان يكون غير منحاز.

في سنة ١٩٦٥ أصدر كمال طاهر روايته "المحارب المتعب" التي أثارت ضجة هائلة، واعتبرها النقاد عملاً أدبياً كبيراً، وقد فازت بجائزة "يونس نادي"، لكن القضاء التركي اصدر حكماً ضدها بسبب الموقف الانتقادي للزعيم كمال اتاتورك فمنع تمثيلها على المسرح او في السينما او التلفزيون، وحين ظهرت بعد ذلك رواية "دولت أنة" كان اعجاب الجمهور المتحرر بها اشد مما حدث للرواية السابقة، وأهم المعجبين بها السياسي الشهير والشاعر الديمقراطي المعروف (بلند أجويد) الذي قال في حقها ما يلي (هذه الرواية هي أهم حدث في تاريخ الأدب التركي على الاطلاق).

نهاية الرحلة

كان من عادات كمال طاهر اليومية ان يخلد إلى الراحة بعد الغداء ثم يحتسي قدحاً من الشاي ويبدأ بالكتابة والتأليف، وفي عصر يوم الجمعة العشرين من نيسان ١٩٧٣ حضر أخوه "راتب بيك" واصطحبه بسيارته إلى داره الواقعة في منطقة "شيشلي" من أحياء استانبول الجميلة، وبعد وصولهما بفترة ليست بالطويلة، بدت على كمال طاهر علامات تعب مفاجئ. يروي الأديب "اسماعيل جيم" الذي كان حاضراً المجلس، الكلمات الأخيرة التي تفوه بها كمال طاهر قبل وفاته: (أعتدت طيلة حياتي أن أؤلف رواياتي ضمن نظام فكري معين لم أنحرف عنه مطلقاً، لم أكتب أي شيء اعتباطاً او مصادفة، كنت دائماً ملتزماً، ذلك هو سبب عدم وقوعي في الأخطاء السياسية، وقد أثبتت الأيام صحة استنتاجاتي.. إن الانسان الذي تقسو عليه الحياة ويعاني اوجاعها ربما يعد سعيد الحظ، لأن الأحزان تزيل الغشاوة عن الأعين فيتهيأ للمحزون اكتشاف الحقائق العارية التي قد لايراها المغروز بزيف الحياة ومظاهرها الخادعة، ثم ان احداث رواياتي تقع في الماضي لكن الروائي المخلص حين يدرس الماضي يكون شبيهاً بمرآة صافية تعكس احوال الحاضر في الوقت عينه، بل قد تتنبأ بالمستقبل ايضاً.)

عند هذا كانت قطرات العرق قد غطت وجهه وبقية أجزاء بدنه. ثم بدأ يشكو من ألم شديد في كتفه وظهره، ونهض محاولاً العودة إلى منزله، لكن أهل الدار استدعوا طبيباً طمأنهم على عدم خطورة حالته، لكن الطبيب كان مخطئاً، فبعد أقل من ساعة فقد وعيه ثم فارق الحياة.

وانطوت بهذا صفحة مهمة من تاريخ الأدب التركي الحديث.

تنويه

نسترعي انتباه قرائنا الأعزاء الى انه سقطت سهواً عبارة (نقلاً عن صحيفة الحياة اللندنية) من مقال الاستاذ حازم صاغية الموسوم (في مسائل القانون والرأي) الذي اعادت نشره (المدى) بتاريخ ٢٠٠٨/٢/١٣، فعذراً للكاتب وللصحيفة.

كما نود ان نشير الى ان (المدى) ستنشر نقلاً عن الصحيفة ذاتها مقال دلال البزري الموسوم (قضية حرية التشهير بصفتها آخر الحريات) فضلاً عن ذلك ستقوم (المدى) بنشر مقال القاص عبد الستار ناصر المعنون (العيب عندما يكون بديلاً عراقياً) والذي خص به صحيفتنا وذلك في عدد يوم السبت الموافق ٢٠٠٨/٢/١٦

المدى الثقافي